المحاضرة (13)

النقد التداولي:

تعتبر التداولية **Pragmatisme** من أحدث وأهم الاتجاهات النقدية اللغوية التي ظهرت وازدهرت في محضن الدرس اللساني الحديث والمعاصر، فبعدما كانت اللسانيات تَقصر أبحاثها على الجانبين البنيوي الذي يهتم بدراسة مستويات اللغة وإجراءاتها الداخلية، والتوليدي الذي يصف ويفسر النظام اللغوي بدراسة المَلكة اللسانية المُتحكمة فيه، أصبحت اللسانيات التداولية لتعالج في مقابل ذلك ما يسمى بـ "لسانيات الاستعمال"[1]، ولعل هذا ما جعلها أكثر دقة وضبطا، حيث تدرس اللغة أثناء استعمالها في المقامات المختلفة وبحسب أغراض المتكلمين وأحوال المخاطبين.

مجال اهتمامها في دراسة اللغة، يتصل أقطاب العملية التواصلية كالمتكلم ومقاصده بصفته مُحرّكا لعملية التواصل، كما تُراعي حال السامع أثناء الخطاب، كما تهتم بالظروف والأحوال الخارجية المحيطة بالعملية التواصلية، ضمانا لتحقيق التواصل من جهة، ولتستغلها في الوصول إلى غرض المتكلم وقصده من كلامه من جهة أخرى.

ومنه فالتداولية إذن علم تواصلي جديد يعالج كثيرا من ظواهر اللغة، ويُفسرها ويساهم في حل مشاكل التواصل ومعوقاته، ومما ساعدها على ذلك أنها مجال رحب يستمد معارفه من مشارب مختلفة، فنجده يمتحُ من علم الاجتماع وعلم النفس المعرفي، واللسانيات وعلم الاتصال والأنثروبولوجيا والفلسفة التحليلية[2].

وبذلك فالتداولية تستند إلى كثير من مكاسب المعرفة الإنسانية المختلفة، ممّا أكسبها طابع التوسّع والثراء في معالجتها المختلفة للغة، وجعلها تتّخذ لنفسها مكانة مهمة بين البحوث، بعدما كانت تعدّ مُهملة.

1-مفهومها:

إنّ تقديم تعريف للتداولية يُلمُّ بجميع جوانبها ويشملها أمر من الصعوبة بمكان، ذلك أنها مبحث لساني ونظرية لم يكتمل بناؤها بعد، كما أنها تتداخل مع كثير من العلوم الأخرى، مما جعل كل باحث ينطلق في تعريفها من مجال تخصصه.

أ- لغة:

يرجع مصطلح التداولية في أصله العربي إلى الجذر اللغوي (د و ل) وله معانٍ مختلفة لكنها لا تخرج عن معاني التحول والتبدل، فقد ورد في معجم أساس البلاغة للزمخشري 538 هـ: "دول دالت له الدولة، ودالت الأيام بكذا، وأدال الله بني فلان من عدوهم، جعل الكثرة لهم عليه، وأديل المؤمنون على المشركين يوم بدر، وأديل المشركون على المسلمين يوم أحد، والله يداول الأيام بين الناس مرة لهم ومرة عليهم، وتداولو الشيء بينهم، والماشي يداول بين قدميه، يراوح بينهما"[3]، ولعل هذا الثبوت لمصطلح التداولية هو الذي جعل الباحث المغربي طه عبد الرحمان يستحدث مفهوم المجال التداولي في ترجمته لمصطلح Pragmatique يقول في توصيفه للفعل تداول: "تداول الناس كذا بينهم يفيد معنى تناقله الناس وأداروه بينهم، ومن المعروف أيضا أن مفهوم النقل والدوران مستعملان في نطاق اللغة الملفوظة، كما هما مستعملان في نطاق التجربة المحسوسة، فيقال "نقل الكلام عن قائليه بمعنى رواه عنه، ويقال دار على الألسن بمعنى جرى عليها، فالنقل والدوران يدلاّن في استخدامهما اللغوي على معنى التواصل وفي استخدامهما التجريبي على معنى الحركة بين الفاعلين، فيكون التّداول جامعا بين اثنين هما: التواصل والتفاعل، فمقتضى التداول إذن أن يكون القول موصولا بالفعل"[4]، ليخلص الباحث إلى كون مجال التداول يحملُ معنى التواصل بين المخاطبين والتفاعل فيما بينهم، ومقتضاه أن يكون القول المتلفظ به موصولا بفعل إجرائي، وهذا المدلول اللغوي للفعل تداول في ارتباطه المباشر بالممارسة التراثية هو ما جعل الباحثين يتلقونه بالقبول حينما وضع طه عبد الرحمان التداولية مقابلا للمصطلح الأجنبي Pragmatique سنة 1970.

مصطلح التداولية في أصله الأجنبي Pragmatique يعود إلى الكلمة اللاتينية Pragmaticus المبنية على الجذر Pragma؛ ويعني العمل أو الفعل[5]، وقد تقلب المصطلح على مدلولات عدة لينتقل استعماله إلى الميدان العلمي بداية من القرن 17م، وصار يدلّ على كل ما له علاقة بالفعل أو التحقق العملي، وهذا المعنى هو الذي قدّم له "ديوي" في قاموس القرن سنة 1909، حيث يرى أن "التداولية هي النظرية التي ترى أن عمليات المعرفة وموادها إنما تتّخذ في حدود الاعتبارات العملية أو الفرضية، فليس هناك محل للقول بأن المعرفة تتحدّد في حدود الاعتبارات النظرية التأملية الدقيقة أو الاعتبارات الفكرية المجردة"[6]، وهذا معناه أنّ التداولية تطلقُ على مجموعة من المعارف والفلسفات التي ترى أن صحة الفكرة ترتكز على ما تؤدي إليه من نتائج عملية ناجحة في الحياة.

ب-**اصطلاحا:** يعود الفضل في استحداث مصطلح التداولية في الثقافة الغربية إلى الفيلسوف الأمريكي شارلز ساندرس بيرس 1914 C S Peirce حينما نشر مقالتين في مجلة ميتافيزيقا سنة 1978 و 1979 بعنوان كيف يمكن تثبت الاعتقاد؟ ومجلة منطق العلم: كيف نجعل أفكارنا واضحة؟ حيث أكّد على أن الفكر في طبيعته إبداع لعادات فعلية، ذلك أنه مقرون بقيمتين: متى يتم الفعل؟ وكيف يتم؟ فيكون مقترنا بالإدراك في حالته الأولى وفي الحالة الثانية يؤدي الفعل إلى نتيجة ملموسة، ليصل إلى أنّ الممارسة والتطبيق والفعل هي التي تشكّل الأساس والقاعدة لمختلف الافكار[7].

ويعود أول استعمال لمصطلح التداولية إلى ويليام تشارلز موريس 1938W M Charles، حيث قدّم لها تعريفا في سياق تحديده للإطار العام لعلم العلامات Sémiologie وذلك في مقال له ركّز فيه على مختلف التخصّصات التي تعالج اللغة (التركيب، الدلالة، التداولية)، ليصل إلى أنّ "التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات"[8]، وهو تعريف يتجاوز المجال اللساني، ليشمل غيره من المجالات غير اللسانية كالمجال السيميائي مثلا.

ولعل محاولة الوقوف على تعريف واحد للتداولية يعدُّ صعبا، نظرا لتنوع خلفياتها الفكرية والثقافية، حيث تعدّدت التعريفات بحسب تخصّصات أصحابها ومجالات اهتماماتهم، ومن بين أبرزها ما قدّمه فرانسيس جاكFrancis Jaques "تتطرق التداولية إلى اللغة كظاهرة خطابية وتواصلية واجتماعية معا"[9]، باعتبارها تتجاوز الدراسة البنيوية السكونية للغة إلى دراستها في سياق استعمالها، ومراعاة كل ما يحيط بها من أحوال، وما تخضع له من مقاصد المتكلمين، لذلك عرّفها الباحث جيلالي دلاش بكونها "تخصّص لساني يدرس كيفية استخدام الناس للأدلة اللغوية في صلب أحاديثهم وخطاباتهم، كما يُعني من جهة أخرى بكيفية تأويلهم لتلك الخطابات والأحاديث"[10]، ثم يردف كلامه بإجمال تعريف التداولية في قوله: "هي لسانيات الحوار أو الملكة التبليغية"[11]؛ لأنها في إطار عنايتها بدراسة اللغة أثناء الاستعمال تهتمّ بعناصر التخاطب والتحاور، مُراعية قصد المتكلم ونواياه وحال السامع وظروفه، كما تبحث في شروط نجاعة الرسالة وسلامة الحوار بين المخاطبين، وكل ما يحيط بهم.

في حين يجعلها الباحث المغربي طه عبد الرحمان –باعتباره أوّل من أدخلها إلى الثقافة العربية– مُختصة بوصف كل "ما كان مظهرا من مظاهر التواصل والتفاعل بين صانعي التراث من عامة الناس وخاصتهم"[12].

فالتداولية إذن تُعنى بكل ما يتصل بالعمل التخاطُبي، بحثا عن المعنى وضمانا للتواصل، باعتبارها دراسة للغة أثناء استعمالها واستخدامها في سياق التخاطب، تقوم على مراعاة كل ما يحيط بعملية التخاطب للوصول إلى المعنى وإحداث الأثر المناسب بحسب قصد صاحبه، كما تبحث في الشروط اللازمة لضمان نجاعة الخطاب وملاءمته للموقف التواصلي الذي يوجد فيه المتلفظ بالخطاب والسامع له.

2-تطوّرها:

لم تصبح التداولية مجالا يعتدُّ به في الدرس اللساني إلاّ في العقد السابع من القرن العشرين، بعد أن طوّرها فلاسفة اللغة المنتمين إلى جامعة أكسفورد Oxford أمثال جون أوستن J Austine وتطورت على يد جون سيرل J Searle وبعض فلاسفة اللغة من بعده، لتظهر بعدها جملة من المفاهيم والنظريات التي تشكّل مجتمعة ما يُعرفُ باللسانيات التداولية التي تهتم بأفعال الكلام والاستلزام التخاطبي والإشاريات ...

والحقُّ أنّ جون أوستن حينما ألقى محاضرات ويليام جيمس عام 1955 لم يكن يهدف إلى وضع اختصاص جديد للسانيات أو فرع جديد لها، وإنما كان يرمي إلى وضع اختصاص فلسفي جديد هو فلسفة اللغة، غير أن تلك المحاضرات صارت فيما بعد بوتقة للسانيات التداولية، حيث انطلق من ملاحظة بسيطة مفادها أنّ كثيرا من الجمل التي لا يمكن أن نحكم عليها بالصدق أو الكذب "لا تُستعملُ لوصفِ الواقع، بل لتغييره، فهي لا تقول شيئا عن حالة الكون الراهنة أو السابقة، إنما تُغيّرها أو تسعى إلى تغييرها"[13]، فجملة من قيل "آمرك بالصمت" لا تصف واقعا، بل تسعى لتغيير حالة الضجيج إلى الصمت.

وبناءً على هذه الملاحظات قسّم أوستن Austine الجمل إلى جمل وصفية يمكن الحُكم عليها بالصدق أو الكذب، وجمل إنشائية لا ينطبق عليها ذلك الحكم، وتقابل في الثقافة اللغوية العربية الجمل الخبرية والجمل الإنشائية، مثلما نجدها عند علماء النحو والبلاغة.

وتنفرد الجمل الإنشائية بخصائص لا توجد في الجمل الوصفية، نحو كونها "تُسندُ إلى ضمير المتكلم في زمن الحال، وتتضمن فعلا من قبيل "أمرَ" و"وعدَ" و"أقسمَ"، ويفيدُ معناه على وجه الدّقة إنجاز عمل، وتسمى هذه الأفعال أفعالا إنشائية"[14]، ويمكن الحُكم على هذه الأفعال الإنشائية لا بمعيار الصدق والكذب وإنما بمعيار التوفيق أو الإخفاق، فعندما تأمر الأم مثلا ابنها قائلة: نظِّفْ أسنانك، ويرد عليها: أنا لا أشعر بالنّعاس، فالأم هنا لم تقل كلاما صادقا أو كاذبا، بل قدّمت أمرا لابنها، وأمرُها هنا أخفق؛ لأن الابن لم يمتثل لأمرها، ولو قام بالفعل لقلنا أن أمر الأم كلِّلَ بالنجاح.

يبد أنّ أوستين اكتشف فيما بعد أن المقابلة بين الجمل الوصفية والجمل الإنشائية ليست بالبساطة التي كان يظن، ذلك أنّ هناك جملا إنشائية، لكنها لا تستند إلى ضمير المتكلم في زمن الحال، ولا تتضمن أي فعل إنشائي، مثل: "رُفعت الجلسة"[15]، وقد قادته هذه الملاحظات الأخيرة إلى وضع مفهوم جديد مفاده أنّ كل جملة تامة مستعملة تقابل إنجاز عمل لغوي واحد على الأقل، وهو مفهوم الأعمال اللغوية التي ميّز فيها أوستين ثلاثة أنواع: العمل القولي والعمل المتضمن في القول وعمل التأثير بالقول.

ففي المثال السابق يمثل التلفظ بالجملة "نظّف أسنانك" النوع الأوّلَ؛ أي العمل القولي، أما العمل المتضمن في القول فهو الفكرة التي تحملها الجملة ووصلت للابن بمجرد سماع تلك الجملة، وأما عمل التأثير بالقول فنجده واضحا في ردّ الابن على أمه: "لا أشعرُ بالنُّعاس"، حيث تضمّنت هذه الجملة إقناعا للوالدة بتأجيل ابنها غسل الأسنان لموعد النوم، كما تحتوي على الفعلين الأوّل والثاني.

وقد شكّلت أفكار وملاحظات أوستين بدايةً مُوفّقةً لنظرية أفعال الكلام، أوّل نظرية تداولية لسانية، ثم سرعان ما فتئت تتطوّر شيئا فشيئا مع فلاسفة اللغة بعد أوستين، بخاصة مع تلميذه جون سيرل، لتظهر بعدها نظريات أخرى (القصدية / الملاءمة / الاستلزام / التخاطبي / الحجاج ...) شكّلت مُجتمعةً ما يعرف باللسانيات التداولية.

3-مهامها:

تتلخصُ مهام التداولية في مجموعة عناصر تتمثل في:

- دراسة اللغة أثناء التلفظ بها في سياقات والمقامات المختلفة، "فالتلفظ هو النّشاط الرئيسي الذي يمنح استعمال اللغة طابعها التداولي"[16]، وذلك لكونه ينتقل باللغة من وجود بالقوّة في ذهن صاحبها إلى وجودٍ

بالفعلِ من خلال الممارسة الفعلية، وعلى أساس هذه المُمارسة يتحدّدُ القصد والغرض من الكلام، فالتداولية إذن تدرسُ اللغةَ بِعدِّها "كلاما مُحدّدا صادر من متكلم محدّد وموجّها إلى مخاطب مُحدّد، بلفظٍ مُحدّد في مقام تواصلي مُحدّدٍ، لتحقيق غرضٍ تواصلي محدّد"[17]؛ بمعنى أنّ الدرس اللساني التداولي يسعى لدراسة المنجز اللغوي في إطار التواصل، وليس بمعزل عنه، ومعرفة مدى تأثير السياقات الاجتماعية على نظام الخطاب، يقول فان ديك Van Dik: "الفكرة الأساسية في التداولية هي أننا عندما نكون في حالة التكلم في بعض السياقات فنحن نقوم أيضا بإنجاز بعض الأفعال المجتمعية وأغراضنا ومقاصدنا من هذه الأفعال"[18].

يرى فان ديك أنّ من مهام التداولية كذلك دراسةُ شروط نجاح العبارات وصياغة شروط ملاءمة الفعل لإنجاز العبارة، ومدى ملاءمة كل ذلك لبنية الخطاب ونظامه، يقول: "إنّ أحد مهام التداولية أن تتيح صياغة شروط إنجاح إنجاز العبارة، وبيان أي جهة يمكن بها أن يكون مثل هذا الإنجاز عنصرا في اتجاه مجرى الفعل المتداخل، الإنجاز الذي يصبح بدوره مقبولا أو مرفوضا عند فاعل آخر، وبهذا الاعتبار فإن المهمة الثانية تقوم في صياغة مبادئ تتضمن اتجاهات مجاري فعل الكلام المتداخل، الإنجاز الذي ينبغي أن يستوفي في إنجاز العبارة حتى تصبح ناجحة، والمهمة الثالثة أنه لما كانت معطيات التجربة متاحة بأوسع ما تكون في صورة العبارة فقط .

هوامش المحاضرة:

1. ينظر نعمان بوقرة: اللسانيات: اتجاهاتها وقضاياها الراهنة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2009، ص160.
2. ينظر مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2005، ص17.
3. الزمخشري: أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998، ج1، ص303.
4. طه عبد الرحمان: تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، ص244.ن الجزائر، ط1، 2009، ص18.
5. نواري سعودي أبو زيد: في تداولية الخطاب الأدبي، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2009، ص18.
6. محمد مهران رشوان: مدخل إلى دراسة الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1984، ص41.
7. الزواوي بغورة: العلامة والرمز في الفلسفة المعاصرة، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مارس 2007، العدد 3، المجلد 35، ص199.
8. فرانسواز أرمينيكو: المقاربة التداولية، تر: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، 1986، ص12.
9. المرجع نفسه، ص12.
10. مدخل إلى اللسانيات التداولية، تر: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1992، ص01.
11. المرجع نفسه، ص01.
12. طه عبد الرحمان: تجديد المنهج في تقويم التراث، مرجع سابق، ص244.
13. آن روبول، جاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، تر: سيف الدين دعفوس، دار الطليعة للطباعة والنشر، 2003، ط1، ص30.
14. المرجع نفسه، ص31.
15. المرجع نفسه، ص31.
16. عبد الهادي بن ظافر الشهيري: استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2004، ص 27.
17. مسعود صحراوي: التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2005، ص27.
18. فان ديك: النص والسياق: استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، د ط، 2000، ص292.
19. المرجع نفسه، ص256.